

لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟:

قراءة من منظور مختلف

*Why did the Muslims delay? Why offers others?*

*Read from a different perspective*

د.الهوري بركة

قسم علم المكتبات، جامعة وهران 1، أحمد بن بلة (الجزائر)

Barkabiblio2018@gmail.com

المعلومات المقال	الملخص:
تاريخ الارسال: 2019/12/15 تاريخ القبول: 2020/11/10 تاريخ النشر: 2020/12/30	يطرح هذا الموضوع في إطار محاولة قراءة من منظور مختلف لمتن ومضمون شكيب أرسلان المعنون ب: لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟ وذلك بالإشارة الى ضبط وتحديد مفهومي التأخر والتقدم من وجهة نظر العلم السوسيوي-اقتصادي. ثم العمل على الوقوف على وجهة نظر شكيب أرسلان فيما يخص الأسباب الوجيهة التي أدت إلى تأخر العرب-المسلمين من جهة، وتقدم أوروبا-الغرب من جهة ثانية. وبعد فلقد قمت بتقديم وجهة نظري الخاصة فيما يتعلق بتلك الأسباب التي رأيت أنها تعود إلى إشكالية التأخر والتقدم مخالفا في ذلك صاحب الكتاب.
الكلمات المفتاحية: التأخر -التقدم -القراءة- المنظور المختلف.	<i>Abstract :</i>
Article info	<p>This issue is presented in the context of an attempt to read from a different perspective of the substance and content of shakibarslan book entitled : why muslims delayed ? why do others offer ? by referring to the definition of the concept of delay and progress from the standpoint of socio-economic science. And then to work on the viewpoint of shakibarslan in terms of the reasons that led to the delay of the arabs – muslims on the one hand ,and europe-the west on the other hand . after ihane presented my own point of view in relation to those reasons that i found to be problematic delay and progress are contrary to the author of the book.</p>
Received : 15/12/2019 Accepted : 10/11/2020 date of publication: 30/12/2020	
<b>Keywords:</b> Delay - progress - reading - the different perspective.	

### 1. مقدمة:

لماذا كتاب شكيب أرسلان المعنون ب: "لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟" والجواب هو: إن الذي دفعني إلى تناول هذا الكتاب، وقراءته من منظور آخر مختلف عما جاء بمتته ومضمونه من قبل صاحبه، مسألتان أساسيتان هما:  
-المسألة الاولى، وتعود الى عنوانه الذي اعتبره يشكل إشكالية وتساؤلا جوهريا في غاية الأهمية من الناحية العلمية والمعرفية.

هذا وإن كان يرجع ظهور الكتاب إلى بداية الثلاثينات من القرن الماضي، أي قبيل نهاية حركة الفكر العربي في عصر النهضة داخل الفضاء العربي -الإسلامي فإن العنوان (الإشكال) بقي بريقه ساطعا وجذابا ومهما الى اليوم. وعليه يمكن طرحه اليوم، وبعد مرور قرابة عشرين من القرن الواحد والعشرين كما يمكن أن نعود إليه وبكل إلحاح وبإعادة التفكير والقراءة.

والسبب في ذلك هو أن الوضع العربي -الإسلامي، وعلى ما هو عليه يتطلب التفكير والبحث والدراسة أكثر من أي وقت مضى وبكل عمق في الأسباب الجوهرية التي جعلت العرب والمسلمين في تأخر، وجعلت الغرب وأوروبا في تقدم.

-وأما المسألة الثانية فهي ترتبط بمضمونه المعرفي، أي إجابته على ذلك التساؤل المطروح في عنوان الكتاب. فلقد وجدت تلك الإجابة -وهذا من وجهة نظري الخاصة- لا ترقى إلى طبيعة التساؤل (الإشكال) المشار إليه سابقا.

إن تلك الإجابة لم تكن نتيجة هم معرفي أو تأمل فلسفي أو جهد فكري كان قد تميز به صاحب الكتاب، وكان مشغولا به انطلاقا من تلك الإشكالية المتعلقة بحالة العرب -المسلمين ومقارنتهم بغيرهم من الأوروبيين والأمريكان وغيرهم.. (الغرب). وإنما كانت نتيجة رسالة بعثها الشيخ محمد بسيوني عمران إلى صاحب مجلة المنار رشيد رضا.

كما وأن تلك الإجابة قد استغرقت ثلاثة أيام فقط، وهذه مدة قصيرة جدا وغير كافية البتة للرد على موضوع يتعلق بمسألة التقدم والتأخر بين العرب-المسلمين والغرب وبالتالي الوقوف على الأسباب الأصلية والجوهرية والعميقة لذلك.

كما وأن تلك الإجابة قد اقتصرت على فكر بسيط، وتناول سطحي بعيد عن كل طرح فكري-نظري، ومقاربة منهجية جادة وصارمة ترتبط والبحث العلمي الموضوعي والأكاديمي.

كما وأن تلك الإجابة جاءت خالية من كل مرجعية علمية ببليوغرافية تعكس الرصيد المعرفي والعلمي في العلوم الاجتماعية والإنسانية، أو تعكس المطارحات الفلسفية والفكرية والتي لها علاقة عضوية وأساسية وطبيعية التساؤل-الإشكالي المطروح.

وبناء عليه، فلقد حاولت من وجهة نظري الوقوف على نفس ذلك التساؤل -الإشكالي المشار إليه أعلاه ومحاولة الإجابة عليه. فالموضوع يكتسي أهمية كبرى، من حيث المعالجة العلمية والمعرفية التي تسمح بالإجابة العلمية الموضوعية القائمة على مقاربة منهجية وطرح فكري معينين. وهذا ما يمكن أن تجيب عنه العلوم الاجتماعية والإنسانية، وذلك باعتبار الموضوع المدروس يرتبط بها، وبتخصصاتها المختلفة والمتنوعة. فالموضوع، وإن طرح ماضيا، فهو لازال يشكل إقبالا كدراسة ومطارحة من قبل كثير من الباحثين والدارسين والمتقنين ...

وبهذا الخصوص فلقد اقترحت وجهة نظر أو منظور مختلف رجعت فيه إلى مجموعة من العلماء والفلاسفة والمفكرين وعبر سيرورة تاريخية للمجتمعات العربية -الإسلامية، قصد الوصول إلى إمكانية الوقوف على الإجابة العلمية الموضوعية المتميزة بالعمق والحفر، والإحاطة والشمول في نفس الوقت.

## لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟: قراءة من منظور مختلف

ومن هذا المنطلق، فإن إشكالية هذه الدراسة المقترحة أو هذا المقال قد تمحورت حول التساؤل الأساسي التالي:  
ما طبيعة الأسباب الأساسية والحقيقية التي جعلت العرب -المسلمين يتأخرون، وجعلت الغرب -الأوروبي وغيره يتقدم؟  
وفي إطار هذه الإشكالية سيتم الحديث عن مفهوما "التأخر" و"التقدم" في المنظور السوسيو-اقتصادي.  
كما سيتم الحديث عن أسباب "تأخر" العرب -المسلمين و"تقدم" الغرب-الأوروبي وغيره في منظور شكيب أرسلان.

وفي الأخير سيتم الحديث أيضا عن تحديد طبيعة أسباب "تقدم" الغرب -الأوروبي وغيره و"تأخر" العرب -المسلمين انطلاقا من قراءة نقدية ومنظور مختلف (وجهة نظر خاصة).  
وهنا تأتي أهمية الدراسة، وبهذا الخصوص كمساهمة علمية ومعرفية ومنهجية تحاول أن تتناول الموضوع المطروح باعتباره موضوعا فكريا سمح بكثير من الدراسات السوسولوجية والفلسفية والتاريخية... التي طرحت حوله أكثر من دراسة ومطارحة بقصد تحليل وفهم الأسباب التاريخية والجوهرية والأساسية التي أدت إلى تأخر العرب-المسلمين. وبطبيعة الحال فإن هذه المقالة هي الأخرى تريد أن تقدم خطابا ورؤية خاصة ومنظورا مختلفا يحدد من خلالها طبيعة تلك الإجابة المعتمدة في هذا السياق-على تلك الإشكالية المشار إليها أعلاه بعيدا عن المهارات والسجلات الأيديولوجية العقيمة على حساب الطرح العلمي والمعرفي المنشود في العمل الجامعي والأكاديمي.

### 2. مفهوم "التأخر" و"التقدم" في المنظور السوسيو-اقتصادي

إن من يرجع إلى الأدبيات والمصادر والمراجع السوسيو-اقتصادية، ليكتشف أن مفهوم "التأخر" كدلالة ومعنى يشير إلى تلك البلدان التي أطلق عليها مفهوم "العالم الثالث" أو "البلدان المتخلفة" أو "بلدان الجنوب" ... الخ. وأن مفهوم "التقدم" ليرتبط وتلك البلدان التي تسمى صناعية أو متطورة أو متقدمة أو غربية ...  
غير أن هذا التقسيم -وفي حقيقة الأمر- هو تقسيم كلاسيكي أصبح متجاوزا لما حدث من تغيرات كثيرة وجذرية في هذا العالم الذي نعيش فيه.

"هناك حقيقة لا مرأى فيها، ناهيك بأنها مأساوية جدا، تؤسف كل من يطلع على واقع العالم الثالث، وهي أن بلدان آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية تتأخر كثيرا في الميدان الاقتصادي عن الدول العالية المتطورة صناعيا."<sup>1</sup>  
لكن علماء الاقتصاد السياسي، وعلماء السوسولوجيا، وإن أدركوا مسألة التغيرات والتطورات والتحولات التي طرأت على العالم المعاصر، إلا أنهم لازالوا يصنفونه إلى "بلدان متخلفة" و"بلدان متقدمة"، بالرغم من المنعرجات التاريخية التي عرفها العالم، ونهاية الصراع الأيديولوجي -الفكري بين الماركسية والليبرالية والحرب الباردة بين المعسكرين المعروفين. وبهذا الفهم، وبهذا التصور يمكن القول إن مفهوم "التأخر" هو مرادف لمفهوم "التخلف"، ويرتبط ارتباطا عضويا بمفهوم بلدان "العالم الثالث".

إن الحديث عن مفهوم "التخلف" أمر يجزنا -وبالضرورة- إلى الحديث عن مفهوم "التقدم"، وهما الاثنان يرتبطان ومفهوم التنمية على المستوى الاجتماعي والاقتصادي معا.

وعليه، يمكن القول أن "التقدم بالمقياس المعاصر هو الوضع الذي يصبح عنده الإنسان (المجتمع) في موقف إيجابي فاعل تجاه شروط وجوده الطبيعية والاجتماعية"<sup>2</sup>

غير أن المسألة هذه وفي اتجاه آخر يمكن وصفه بالاتجاه الماركسي، فإنه يعتبر أن تلك المفاهيم المشار إليها آنفا، وهي "التخلف" و"التقدم" و"العالم الثالث" و"التنمية" وما تحمله من دلالات ومضامين وخلفيات أيديولوجية تعد بعيدة كل البعد عن محاولة الطرح العلمي السليم في إطار "علمية" العلوم الاجتماعية والإنسانية، خاصة إذا تعلق الأمر بعلم الاجتماع والاقتصاد السياسي.

فالتصور الماركسي هنا ومن خلال ما يظهر، يعتبر أن هناك عجزا علميا ومعرفيا على مستوى القراءة لعلم الاجتماع البرجوازي لمفاهيم "التخلف" و"التقدم" و"العالم الثالث"، وأن هذا لا يوضح المسألة حقيقة من وجهة النظر السوسيولوجية، والاقتصادية. فالقضية أساسا تعود إلى مفهوم التطور التاريخي - الاجتماعي للمجتمعات البشرية والإنسانية.

وعليه فإن مفهوما "التقدم" و"التخلف" ... هما عنصران محتويان بدرجات وأشكال مختلفة، في مجموع مراحل التاريخ. ولذلك فهما ليسا مطلقين، بل نسبيين. إن وجهة النظر هذه (علم الاجتماع البرجوازي) تنكر عليهما أن يكونا متضمنين سمة الحصر والحسم بالنسبة إلى أية مرحلة من مراحل التاريخ. أي أنهما غير قادرين على منح الهوية لواحدة من تلك المراحل.<sup>3</sup>

إن الماركسية ومن خلال تحديدها لهذه التشكيلات-تعتبر أن "التقدم" و"التأخر" ليرتبط بهما ارتباطا عضويا ووثيقا يمكن فهمه من تقدم علاقات الإنتاج داخل تشكيلة اجتماعية - اقتصادية معينة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الطرح أو هذا التصور يتجاوز مسألة "التقدم" و"التأخر" المرتبطان بمقياس التطور أو التقدم التكنولوجي - العلمي في المنظور الماركسي.

فالمسألة تدور أساسا حول الإنسان أولا وأخيرا رغم تأكيده من جهة أخرى على مفهوم قوى الإنتاج واعتبار تطور تاريخ البشرية هو نتيجة وحتمية تاريخية لتطور طبيعة نمط الإنتاج السائد. ومما سبق يمكن أن نستنتج أن المطارحة السوسيو - اقتصادية في المنظور البرجوازي - الرأسمالي تختلف اختلافا جوهريا والمطارحة السوسيو - اقتصادية في المنظور الاشتراكي - الماركسي.

تري، فإلى أي المطارحتين السابقتين يمكن أن يصنف شكيب أرسلان صاحب الكتاب - الكتاب المدرس؟ في حقيقة الأمر فإن شكيب أرسلان لا يمكن تصنيفه لا إلى المطارحة الأولى ولا إلى المطارحة الثانية. ذلك أن مفهوما "التأخر" و"التقدم" قد فهمهما شكيب أرسلان من خلال منظور الثقافة العربية - الإسلامية التي ترجع تصور المفاهيم إلى ما كان سائدا كعرفة في الفضاء الثقافي العربي - الإسلامي كمفهوم الإصلاح الديني والنهضة العربية وسبل وأسباب اللحاق بالحضارة الغربية - الأوروبية انطلاقا من محاولة الاحتكاك بها أو القطيعة معها.

وللوقوف على ذلك سنتطرق إلى ما ورد في الكتاب قيد الدراسة.

### **3. أسباب "تأخر" و"تقدم" المسلمين في منظور شكيب أرسلان:**

وفي هذا الصدد تعين طرح السؤالين التاليين:

ما الأسباب التي جعلت المسلمين يتأخرون أو يتخلفون خلال حقبة تاريخية معينة عن بقية بعض الشعوب والأمم والحضارات؟ وفي نفس الوقت ما الأسباب التي دفعت بغير المسلمين (أوروبا وأمريكا واليابان...) إلى الارتقاء والتقدم؟

وللإجابة على ذلك سنقوم برصد بعض النصوص التي استشهد بها شكيب أرسلان في كتابه المشار إليه سابقا.

في حقيقة الأمر فإن المسلمين، وقبل تأخرهم وتخلفهم قد مروا بمسار تاريخي شهدوا وعرفوا فيه الارتقاء والتقدم.. وهذا ما يمكن تحديده كالتالي:

"إن أسباب الارتقاء كانت عائدة في مجملها إلى الديانة الإسلامية التي كانت قد ظهرت جديدا في الجزيرة العربية فدان بها قبائل العرب، وتحولوا بهديتها من الفرقة إلى الوحدة، ومن الجاهلية إلى المدنية، ومن القسوة إلى الرحمة، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الأحد..."<sup>4</sup>

إن صاحب الكتاب، ومن خلال النص السابق يرجع أسباب الارتقاء أو التقدم، إلى الديانة الإسلامية باعتبارها حالة جديدة طرأت على العرب أيام الجاهلية في الجزيرة العربية. فلقد غيرت هؤلاء العرب من

## لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟: قراءة من منظور مختلف

حالة إلى حالة أخرى، من حالة سلبية إلى حالة إيجابية، وذلك على المستوى السوسولوجي، والنفسي، والاعتقادي، والحضاري عموماً. هذا وإن كان شكيب أرسلان لم يوضح ذلك بشكل من الدقة والتفصيل والتوضيح ... واكتفى بالمعنى العام لمفهوم الديانة الإسلامية. لكن أرسلان يبقى مسترسلاً في محاولة تبيانه أسباب رقي وتقدم المسلمين في الماضي حيث يقول:

"فالقُرآن قد أنشأ إذا العرب نشأة مستأنفة، وخلقهم خلقاً جديداً، وأخرجهم من جزيرتهم، والسيف في إحدى اليدين، والكتاب في الأخرى يفتحون، ويسودون، ويتمكنون في الأرض بطولها وعرضها." 5

والإشارة هنا واضحة، فالقرآن هو عقيدتهم الجديدة التي غيرتهم وجعلت منهم أمة جديدة تختلف عما كانت عليه من قبل والجهاد أو الحرب المقدسة ممارسة جديدة أيضاً سمحت لهم بما اصطاح عليه بعض المؤرخين "بالتفوحات الإسلامية" التي جعلت منهم أسيادا على أقوام آخرين ومكنتهم من السيادة على كثير من الأرض والجغرافيا.

إن الجهاد هنا كان يتم بوسيلتين أساسيتين هما: نشر الرسالة الجديدة من جهة واستعمال السيف والقوة من جهة أخرى. وإذا توقفنا عند مفهوم القوة هنا فإننا سنكتشف أن مضمونها ودلالاتها في أغلب الأحيان تعبر عن تلك القوة العسكرية وعلاقتها أساساً بمفهوم الجهاد ضد الآخرين غير المسلمين. غير أن المسألة، وفي كل دعوة إسلامية أو مسيحية.. أو غيرها، فإن القوة العسكرية وحدها لا يمكن أن تكون وسيلة للإقناع.. "وإنما ما يمكن أن يضاف إليها من عناصر معنوية وتاريخية وجغرافية وبشرية. الخ." 6

أي وما يلحق ذلك من أفكار "أيديولوجية" وحتمية تاريخية للحدث التاريخي، وجغرافية المكان، وطبيعة البشر، ومكانتهم الاجتماعية ومصالحهم المادية والمعنوية. ويقول أيضاً: "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون وعدا عليه حقا في التوراة، والإنجيل، والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم." 7

وشرحا لهذه الآية وتفسيراً وتأويلاً لها يقول أرسلان:

"فأين حالة المسلمين اليوم من هذا الوصف الذي في كتاب الله؟ وأين حالتهم من سلفهم الذين كانوا يتهافتون على الموت الأحمر لإحراز الشهادة، وكثيراً ما كانوا ينشدون الموت ولا يجدونه؟ وكان فارسهم يكر وهو يقول: إني لأشم ريح الجنة. ثم لا يزال يكر ويخوض غمرات الحرب حتى إذا استشهد قال: هذا يوم الفرح. وإذا فاتته الشهادة رغم حرصه عليها عاد إلى قومه حزينا كئيباً." 8

وأمام هذا الفهم الخاص بأرسلان، هناك أسئلة تطرح نفسها هنا، وبكل إلحاح هي:

هل الجهاد وحده، أدى إلى رقي المسلمين وتقدمهم؟ ولماذا لا تتم الإشارة إلى استفادة العرب والمسلمين من الحضارات القديمة السابقة؟ ولماذا لا يتم الحديث كثيراً عن الترجمات التي قام بها علماء العرب والمسلمين وفلاسفتهم عن الأقوام التي سبقتهم في العلم والفلسفة والحضارة...؟

وفي حقيقة الأمر ومن وجهة نظري طبعاً فإن تاريخ البشرية يكشف لنا وبوضوح أن حضارة ما من حضارات الأمم والشعوب، ما هي إلا نتيجة حضارات أخرى عبر التلاقح والتكامل والتناثق... الخ سواء تعلقت المسألة بالأفكار أو القيم المادية أو غير ذلك... فتطور الفكر البشري يخضع لمساهمة عقول بشرية متباينة ومختلفة ...

ويقول أيضاً: "...وذلك لأنه كثيراً ما يضعف تأثير الدين في الأمم فتقلت من قيوده، وتفسد أخلاقها، وتنهار أوضاعها، فيكون فساد الأخلاق هو علة السقوط، ولا يكون الدين هو المسؤول (...). فتأخر المسلمين في القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة، بل من الجهل بالشريعة، أو كان من عدم إجراء أحكامها كما ينبغي." 9

وإذا نظرنا إلى النص سالف الذكر فسنجد أرسلان يقوم بتوصيفه عندما يؤكد على مسألة الأخلاق وما تحمله من مضمون..، فهو هنا يقصد الأخلاق الإسلامية التي إذا ما تخلت عنها المجتمعات والشعوب، فإنها تصاب وتعرض إلى التأخر والتخلف والانحطاط... لكن، وفي هذا السياق وإذا عرضنا ذلك التصور على وجهة نظر العلم السوسولوجي فإننا سنجد يعتبر مفهوم الأخلاق لا يحمل مضمون الثبات.. فالأخلاق نسبية ومحكومة بمبدأ الزمان والمكان، والتغير الاجتماعي، والنسبية الاجتماعية، كما يتصور ذلك كارل مانهايم. وكذلك فإن أحكام الشريعة ليست ثابتة، ولا يمكن أن تكون كذلك لأن طبيعة البشر أفرادا وجماعات ودول وأمم وحضارات هي متغيرة ضرورة ومتطورة حتما...

#### 4. أسباب تقدم الغرب (غيرهم) في منظور شكيب أرسلان:

إن صاحب الكتاب، وفي هذا المقام متحدثا عن أسباب تأخر أوروبا الماضي ونهضتها الحاضرة، فإنه يشير إلى تأخر أوروبا -وبحسب اعتقاده- لم يكن بسبب الدين المسيحي أو النصرانية، وإن كان البعض من المثقفين والمؤرخين الذين اعتقدوا أن الكنيسة البابوية هي واحدة من الأسباب الأساسية والقاهرة في تأخر العالم الأوروبي. وفي المقابل فإن نهضتها وتقدمها قد ارتبط وتركها تلك الديانة، ووضع حد فاصل وحاسم بين الفضاء الديني والفضاء الديني.

"نعم إن الأمم البروتستانتية منهم تجعل مصدر هذا التأخر الكنيسة البابوية... من حيث هي، وتزعم أن نهضة أوروبا لم تبدأ إلا بخروج (لوثير وكالفين) على الكنيسة الرومانية." <sup>10</sup> وهنا لا بد من القول إن أرسلان لم يفصل ولم يوضح ولم يحلل. أسباب تأخر أوروبا، كما أنه لم يبين الأسباب الوجيهة والتاريخية التي جعلته يتقدم.

وفي حقيقة الأمر فإن أرسلان يعرف ويدرك ويفهم جيدا ما هي الأسباب الجوهرية التي جعلت وسمحت للعالم الأوروبي-الغربي أن يتأخر، ويعرف أيضا وبشكل أساسي الأسباب التي جعلته يتقدم. سيما إذا علمنا أن الرجل يتكلم أكثر من لغة واحدة، فهو يعرف مثلا اللغة الإنجليزية والفرنسية والتركية. كما أن الرجل قد تعرف على كثير من المثقفين والمفكرين والأدباء ورجال السياسة والمصلحين... وغيرهم. فكيف يهمل ذلك، وهو الذي حاول أن يجيب على تساؤل أساسي وفي غاية الأهمية من حيث الصيغة والمضمون؟

#### 5. تحديد طبيعة أسباب تأخر (تخلف) العرب-المسلمين وتقدم غيرهم من منظور مختلف:

إن التساؤل الإشكالي الذي طرحه شكيب أرسلان، وإن كان يعود إلى الثلاثينيات من القرن الماضي، فإنه وفي حقيقة الأمر يصلح أن يكون تساؤلا جديدا أو متجددا.. وذلك لأن حالة العرب-المسلمين لم تتغير كثيرا، فلقد عجزوا أو لم يتمكنوا تحديدا من تأسيس دولة وطنية قائمة على الحق والقانون، ولا القدرة على خلق شروط موضوعية وذاتية على إنشاء نظام ديمقراطي حقيقي. وكذلك "لعنة" الفشل الذريع من حيث إمكانية الوصول إلى نمو اقتصادي مقبول يغير معطى التقدم والتطور.. إلخ.

وفي المقابل فإن الغرب -الأوروبي (غيرهم) يزداد -وكل يوم- تقدما ورقيا وتطورا إلى الأمام، في كل ميادين الحياة وعلى جميع الأصعدة، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعلمية والتكنولوجية والعسكرية...

إن التساؤل-الإشكالي، لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟ يمكن اعتباره من الإشكالات التي شغلت الفكر العربي-الإسلامي من أجل النهضة والتقدم والخروج من دائرة الانحطاط والتخلف.. في تلك

## لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟: قراءة من منظور مختلف

الفترة التاريخية التي عاشها العرب -المسلمين، أي بداية من القرن التاسع عشر، والبحث عن أسباب تقدم وتطور أوروبا-الغرب مقابل أسباب تأخر وتخلف العرب-المسلمين.

وعليه فلقد وجدت أنه من الضرورة بمكان العودة إلى ذلك التساؤل-الإشكالي الذي يرتبط والموضوع المدروس ومن منظور آخر مختلف. وقد يكون متناقضا ومتجاوزا لما حاول أن يقدمه أرسالن في كتابه المشار إليه سلفا.

وفي هذا السياق سأعتمد وسأحاول الوقوف على مسألة تأخر (تخلف) المجتمعات العربية-الإسلامية. والوقوف على معرفة امكانية تجاوز ذلك. ولتحقيق ذلك نعتقد أن القضية تتطلب أولا إحداث ثورات كبرى على مستوى العلم والفلسفة والدين والسياسة. فالعالم الأوروبي-الغربي (غيرهم) لم يتقدم ولم يتطور إلا بفضل ذلك.

ترى كيف استطاع الغرب أن يحقق ذلك؟

إن الثورة هي عملية انتقال من القديم إلى الجديد، ومن الثبات إلى التغيير، ومن الهدم إلى البناء، ومن التأخر إلى التقدم. وهذا المعنى ينطبق على كل أشكال الثورة، العلمية والفلسفية والدينية والسياسية. أ-الثورات الكبرى: ويمكن تحديدها كالتالي:

إن البلدان والمجتمعات العربية -الإسلامية لم تتمكن بعد من خلق أو إنجاز أو تفجير ثورة علمية على غرار ما وقع في العالم الأوروبي قصد الخروج من التأخر (التخلف) واللحاق بركب الحضارة والتطور والتقدم على مستوى الاقتصاد، والاجتماع، والتكنولوجية.. الخ.

ذلك "أن الثورة التكنولوجية العلمية والتخطيط العلمي قد أصبحا ضمن إطار اجتماعي اقتصادي متقدم، أداتين حاسمتين لتجاوز التخلف الحضاري عموما، أي في عملية التنمية الاقتصادية والتحويل الاجتماعي وخلق قوى علمية تستطيع منازلة ذلك التخلف أينما وجد. وواقع التخلف الشامل في وطننا، وهو جزء من تلك البلدان، يستحطنا على طرح قضية العلم ودوره الانقلابية (الثورة العلمية) في تغيير البنى الاقتصادية والتكنولوجية القائمة".<sup>11</sup>

ولكن، وبكل مرارة وأسف نقول إن مسألة العلم وليس الثورة العلمية في المجتمعات العربية -الإسلامية لازالت تعاني وفي مستوى أولي من تطور وتقدم العلم داخل الجامعات الوطنية والمخابر العلمية.

وما يؤكد ذلك نشير إلى الحالة التي هو عليها العلم في جامعاتنا، وفي مجتمعنا. ف "العلم ذاته حول عندنا إلى علم خدمات. وإن عدد الأطباء والصيدلة والمهندسين يتكاثر بين أظهرنا ولا نلمس انتشارا للذهنية العلمية. السبب هو أن هؤلاء تعلموا كيف يستفيدوا من إبداعات الغير، وفي غياب مؤسسات تشجعهم على الابتكار، فإنهم يتحولون بسرعة إلى دعاة للعقلية الاستهلاكية فيتغلب الفكر القديم على العلم الحديث".<sup>12</sup>

ترى متى تتمكن المجتمعات العربية-الإسلامية من إحداث قطيعة وانقلاب عقلي، وثورة علمية تمكنهم وتسمح لهم بعملية التجاوز والرفي والتطور والتقدم إلى الأمام؟

### 6. الثورة الفلسفية:

لقد تمثلت "الثورة الفلسفية بديكارت، وكانط، وهيغل، وجون جاك روسو، وفولتير، وكل فلاسفة التنوير".<sup>13</sup> وغيرهم كثير إذا وقفنا على تاريخ الفلسفة الحديثة الأوروبية-الغربية.

مثلا، من أبرز أفكار روني ديكارت (1596-1650)<sup>14</sup> الجريئة بالنسبة لعصره هي انتصاره للعقل وللحس في عملية إدراك الأشياء، وللشك المنهجي وسيلة من أجل معرفة الحقيقة. فهو "ينتقد المعرفة

الموجودة وذلك بهدف البحث عن معرفة أكثر يقينية، بدفعه إلى ذلك الإيمان بوجود مثل هذه المعرفة. الشك عنده، ليس إلا وسيلة لامتحان معارفنا وقوانا العارفة ومنها للوصول إلى اليقين.<sup>15</sup> فالمعرفة إذا تتعلق أساسا ومسألة الاستعمال الصحيح.

قال ديكارت: "العقل هو أحسن الأشياء توزعا بين الناس (بالتساوي) إذ يعتقد كل فرد أنه أوتي منه الكفاية...<sup>16</sup> ولما كان العقل هكذا في تصور ديكارت، فإن الكوجيتو الذي يعود إليه يمكن صياغته كالتالي: "أنا أشك، أنا أفكر، إذن أنا موجود"<sup>17</sup>

وبهذه الصياغة وهذا الطرح فهم رجال الدين والبابوات آن ذاك، أن ديكارت قد أعاد الاعتبار للعقل في المجال الفلسفي، وكذلك في المجال الرياضي والعلمي. وهكذا أصبح يعرف بالفيلسوف العقلاني، أو صاحب النزعة العقلانية. والنزعة العقلانية.

إن تاريخ الفلسفة الحديثة يخبرنا عن كثير من الفلاسفة الكبار الذين ساهموا في الثورة الفلسفية التي شهدتها أوروبا، كما وأنهم ساهموا في إحداث تلك القطيعة الأبيستمولوجيا مع الماضي، وإعطاء بديل فكري وفلسفي جديدين سما بتقدم أوروبا - الغرب إلى الأمام، وبالمقابل، ترى هل عرف العالم العربي - الإسلامي هو الآخر ثورة فلسفية على غرار ذلك؟

إن تاريخ الفلسفة في إطار الثقافة العربية - الإسلامية ليكشف لنا، وبكل وضوح أن الفكر الفلسفي لم يحض أبدا بمكانة تليق به كفكر فلسفي. فلقد حوصرت الفلسفة، واتهمت بالكفر والزندقة والمروق عن "الحق" من قبل فلاسفة، ومن داخل النسيج الفلسفي العربي - الإسلامي، وكذا حكام وحكام وخلفاء وملوك، ورجال الدين وفقهاء وعلماء شريعة... قديما وحديثا.

ولعل ما قاله وكتبه الفيلسوف أبو حامد الغزالي دليل على ذلك، فلقد كتب كتابا أحدث ضجة كبيرة في ذلك الوقت هو: "تهافت الفلاسفة" وفي آخر أيامه كتب كتابا بعنوان: "المنقذ من الضلال" وفي كلا الكتابين تكفير للفلسفة والفلاسفة وضرب وتحطيم للعقل وتعطيل للتفكير.

ومعنى ذلك أن الفلسفة عند العرب - المسلمين وجدت نفسها، ومنذ البداية في مواجهة التيارات الفكرية المحافظة والتقليدية المتصلبة من فلاسفة ورجال دين.

فالفلسفة دعوة إلى النقد والنقاش والجدل، وهي كذلك دعوة إلى الحرية والتحرر. ولذلك نجد "أحيانا يحتد الموقف المتحفظ من الفلسفة دينيا وسياسيا فيتعرض الفلاسفة لنكبات وضغوط لتحريف الفلسفة عن مقاصدها وإخراجها عن حدودها..."<sup>18</sup>

وفي تراثنا الفكري العربي - الإسلامي يوجد ما هو أخطر من ذلك وأقبح. فلقد عرفت الفلسفة مسألة التحريم من حيث القراءة والبحث والتدريس... وذلك بإصدار قوانين تمنع ذلك منعا باتا. ولنا في التاريخ ما يبرر ذلك.

واليوم، وإن أصبحت الفلسفة تدرس في الثانويات، وفي الجامعات، والمعاهد... فهي تدرس - فقط - باعتبارها مادة فارغة من محتوى الشك المنهجي والفكر النقدي والتساؤل الجدلي. وبمعنى آخر نريد أن نقول إن تدريس الفلسفة هو مخالف لما كان يراه كانط "لا نتعلم الفلسفة وإنما نتعلم التفلسف" ومخالف أيضا لكارل ياسبرس عندما قال: "إن الأسئلة في الفلسفة أهم من الأجوبة، وأن كل جواب يجب أن يتحول إلى سؤال جديد"

فتدريسها أصبح يقوم على الحفظ والإملاء والحرص على إرجاع المعلومات يوم الامتحان بلغة الأستاذ وصياغته وأفكاره ومواقفه وآرائه... الخ

وهذا بطبيعة الحال مناقض ومناقض لتدريس الفلسفة ولا علاقة له بمسألة الفكر النقدي والفكر الحر.. فهو تدريس يشبه تدريس العلوم الدينية والمعارف الفقهية.. إن الفلسفة غريبة والدين أصيل، إن الفلسفة عقل والدين نقل، إن الفلسفة طريق إلى الكفر والإلحاد والمروق والزندقة والدين هداية إلى الحق والإيمان والخير والبركة... هكذا يتم تدريس الفلسفة ويتعامل معها، وهكذا هو مفهوم الفلسفة في الفضاء الثقافي العربي – الإسلامي.

وبهذا الشكل من تدريس الفلسفة نكون قد علمنا جيلا بكامله، بل أجيالا عدم القدرة على تحليل الإشكاليات الفلسفية بروح علمية، وبقدرة فكرية فلسفية ونقدية. ونكون قد علمناه أيضا التعامل مع الأفكار والقضايا العلمية والمسائل الفلسفية والمعرفية بعقل "توفيقوي" مأزوم مستنسخ من ذلك العقل أو الفكر العربي – الإسلامي في عصر النهضة، والذي فشل ولازال كذلك في التصدي لكثير من القضايا والأسئلة الحاسمة والمصيرية التي طرحت عليه في ذلك الوقت منذ نهاية القرن 18 وإلى اليوم.

### 7. الثورة الدينية:

أعتبر أن الثورة الدينية عملا واجتهادا في غاية الأهمية بمكان قام به الإنسان الأوروبي، عندما رأى أنه من الضرورة إحداث ثورة فكرية وتأويلية على مستوى النصوص المقدسة، وكذلك على مستوى الفاعل الاجتماعي المتمثل في رجال الدين ورجال الكنيسة. وعليه فإن " الكنيسة الكاثوليكية التي تمثل أكبر المذاهب المسيحية والتي حاربت العلم الحديث على مدار قرون عديدة، بل حاكمت غاليليو وقتلت جيوردانو برونو، وأقامت محاكم التفتيش منذ العصور الوسطى وحتى مشارف القرن الثامن عشر، استسلمت أخيرا لمنطق العصر وغيرت لاهوتها وفقها القديم ونفضت الغبار عن نفسها، وجددت معتقداتها وموقفها من الآخرين. ولم يكن ذلك بالأمر القليل." 19

وجدير بالذكر هنا الإشارة إلى أن المجتمعات الأوروبية ومن خلال مفهوم تاريخ البشرية قد شهدت ثورات اجتماعية – اقتصادية كبرى سمحت بأن تحولت أوروبا من تشكيلة اجتماعية – اقتصادية معينة إلى تشكيلة اجتماعية – اقتصادية أخرى. أي، وفي هذا الصدد من الإقطاعية إلى الرأسمالية مثلا. ومعنى ذلك فإن أوروبا – الغرب قد عرفت هذه التحولات على المستوى المادي – القاعدي الاقتصادي من جهة، والمستوى الفوقي – الفكري والإيديولوجي من جهة أخرى. وعليه، فإن هناك علاقة تأثير وتأثر بين هذين الجانبين الاقتصادي والإيديولوجي. ولذلك يمكن القول أن العالم الأوروبي – الغربي قد ارتبط أساسا بالتحرك الاقتصادي أولا الذي فرض وبشكل دياكتيكي تحررا إيديولوجيا وعقائديا – دينيا بالتالي. ويعود الفضل في ذلك إلى بروز أو ظهور الطبقة البرجوازية وانتصارها على الطبقة الإقطاعية، ومنه ف: " لقد أدى تفسخ العلاقات الإقطاعية إلى تغيير كبير في الدور الذي يلعبه الدين في المجتمع. فقد تزعزعت دعائم الدكتاتورية الروحية، التي مارستها الكنيسة طوال العصور الوسطى كلها. ومع ذلك بقي الدين يحتل مواقع لا يستهان بها في نفوس الناس. ولذا لم يكن مستغربا أن تقوم الثورات البرجوازية الأولى، في القرنين السادس عشر والسابع عشر، تحت راية النزعة الدينية الإصلاحية البروتستانتية. أما وقوف البرجوازية ضد الدين مباشرة فلم يتم إلا في القرن الثامن عشر، حين أعلنت البرجوازية، في فرنسا مثلها السياسية الخاصة. وإذا كان الدين قد بقي بالنسبة لعامة الشعب في المجتمع الرأسمالي مصدرا للأوهام، السياسية منها والأخلاقية، إلا أنه فقد نهائيا سيطرته في ميداني العلم والفلسفة" 20

وبهذا المعنى والدلالة نكتشف أن الثورة الدينية والإصلاح الديني في العالم الغربي سمح بالتغيير الجذري للمجتمع نتيجة لذلك على كثير من المستويات المشار إليها أعلاه. فالثورة الحقيقية هي التي تفعل

فعلها في المجتمع وتعمل على تغييره جذريا، وإلا ما كان من الممكن أن تسمى ثورة، وفي حدود دنيا إصلاحا.

وللاستدلال على ذلك يمكن الإشارة إلى ما يلي:

وفضلا عن ذلك فإن الفكر الغربي، واستدلالاته على ذلك ومن خلال المرجعية الأوروبية، فإنه قد أنجز إصلاحا وثورة ضد تراثه الماضوي، وأسس فكرة العقد الاجتماعي بين الحاكم والمحكوم، وطرح فكرة حقوق الإنسان والتسامح، وارتباط الحق والواجب، وبنى المجتمع المدني... الخ. ومن هنا يكون لزاما علينا طرح التساؤل الآتي:

لماذا لم يستطع ولم يتمكن العالم العربي -الإسلامي ومن خلال نخبه إنجاز ثورة دينية أو إصلاحا دينيا على غرار ما حدث في العالم الغربي -الأوروبي؟

وللإجابة على هذا التساؤل يمكن أن نقول وبدون تردد أن مسألة الثورة الدينية داخل المجتمعات العربية -الإسلامية لم تصبح بعد من القضايا الراهنة، ولم يتجرأ بعد أحد على ذلك.

أما فكرة الإصلاح الديني، فلقد حاول كثير من العلماء والمفكرين والنخب المثقفة قديما وحديثا القيام بذلك، ولكن من مواقف متعددة ومختلفة منها الموقف والنظرة السلفية التي تكرست في فكر ما أطلق عليه "أحمد أمين" زعماء الإصلاح..

فلقد كانت "فكرة الإصلاح" في الفكر السلفي الحديث، سواء تعلق الأمر بسلفية محمد بن عبد الوهاب أو سلفية جمال الدين الأفغاني أو سلفية محمد عبده أو بأي تيار سلفي آخر أو حديث أو معاصر تتبنى وتتأسس على مضمون تلك القولة التي تنسب إلى الإمام مالك، والتي جاء فيها: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها" <sup>21</sup>

لقد اتخذ الإصلاح في العالم العربي -الإسلامي شكلا آخر ارتبط هذه المرة بتحديات أصبحت أمرا واقعا بينه وبين العالم الغربي-الأوروبي. فالعلاقة بينهما هي علاقة "التأخر" و"التقدم"، الأمر الذي دفع حركة الإصلاح الحديث إلى أن تأخذ هذا الفارق الأساسي والجوهري بينهما بعين الاعتبار.

"يسلم الفكر الإصلاحية الإسلامي الحديث بالتأخر بالنسبة للغرب، ولو أنه في اعتباره جزئ مادام يردده إلى مجرد تأخر مادي. لكن، هل نقف عند هذه الدعوة التي يرددتها أصحاب الإصلاح الإسلامي الحديث من أن تفوق الغرب مادي فحسب، وأن في هذا الجانب فقط يتمثل تأخر المسلمين، ونعتبر أن هذا هو موقفهم الحقيقي؟ نعتقد أنهم ذهبوا إلى ما هو أبعد، فهم في الواقع اعتبروا تفوق الغرب (...). راجعا أساسا إلى نظامه السياسي الضامن في رأيهم للحرية والمقيد للسلطة بالقانون.

ومنه نقول إن المقارنة سالفة الذكر تجعلنا نعرف أن تفوق الغرب على الشرق لا يكمن فقط في الجوانب الحضارية والمادية والتكنولوجية... وإنما يكمن أيضا في طبيعة النظام السياسي. بين دولة الحق والقانون والديمقراطية الحقة، والدولة الشمولية والفساد المالي والإداري والاقتصادي وتجاوز القانون.

### 8.ثورية / فشل الطبقة البرجوازية:

يرتبط مفهوم الطبقة البرجوازية في أوروبا بالتشكيلة الاجتماعية -الاقتصادية الرأسمالية، باعتبارها مرحلة تاريخية عرفت البشرية بعد اندحار التشكيلة الاجتماعية -الاقتصادية الإقطاعية. لذلك نجد "أن السبب الأول لتقدم الإنكليز الاقتصادي يكمن في وجود مجموعة من الرجال تحلت بعقلية منتجة، استحوذت على اختراعات، وخلقت الظروف التي تتيح لهذه الاختراعات أن تعطي كل نتائجها. هذه الطبقة من "رواد الأعمال" "المنظمين" <sup>22</sup>. إن الطبقة البرجوازية في أوروبا، ومنذ نشأتها التاريخية قد حملت

على عاتقها المسألة الاقتصادية، باعتبارها العمود الفقري لكل تطور إنتاجي، ولكل تقدم صناعي يحتاجه هذا البلد أو ذاك.

وارتباطا بين المسألة الاقتصادية والمسألة السياسية والعلاقة الجدلية بينهما، فإن الطبقة البرجوازية في أوروبا استطاعت أن تغزو أسواقا خارجية. وهكذا تصبح المجتمعات الإنسانية قاطبة خاضعة لمقتضيات وضرورات نمط أو أسلوب الإنتاج الرأسمالي العالمي.<sup>23</sup>

ولما كانت البرجوازية الأوروبية هكذا، فلا يسعنا إلا تأييد الطروحات السوسيولوجية التي تعتبر " أن الثورة الديمقراطية البرجوازية هي أولا مرحلة تاريخية ضرورية لا يمكن القفز من فوقها أو "حرقها"<sup>24</sup>، وعلى أساس مهمتها التاريخية المشار إليها فوق، وصلت أوروبا إلى ما وصلت إليه اليوم من تقدم وتطور على جميع الجوانب والجبهات ماديا ومعنويا ...

وفي المقابل، وعند الوقوف على مسار المجتمعات غير الأوروبية وبلدان العالم الثالث عامة، والبلدان العربية - الإسلامية خاصة، والحالة هكذا، فإنها لم تستطع وإلى اليوم تكوين برجوازية على غرار البرجوازية الأوروبية - الغربية، وهذا راجع إلى عدم ظهور تلك التشكيلة الاجتماعية - الاقتصادية الرأسمالية. والسبب يعود إلى طبيعة حركة قوانين التطور الاجتماعي من جهة، والعمل السياسي - النضالي من جهة ثانية، والفعل الرأسمالي الكولونيالي من جهة ثالثة. وفي هذا الصدد والمقام نشير إلى " أن تلك البلدان لم تحقق بالأصل الثورة البرجوازية الديمقراطية التصنيعية نتيجة عاملين أساسيين، هما التواطؤ الذي تم بين الطبقة البرجوازية الوليدة وبين الإقطاع الراسخ الأقدام، وتدعيم وتركيز هذا التواطؤ من قبل التدخل الرأسمالي الاستعماري. "<sup>25</sup>

لكن الشروط التي تحدثت عنها المراجع السوسيولوجية والاقتصادية العلمية عن امكانية ظهور الطبقة البرجوازية في العالم الثالث، والعالم العربي - الإسلامي، لم تتمكن من أن تتحقق عبر هذا التاريخ الطويل، أي منذ انهيار وتراجع الكولونياليات الأوروبية - الغربية واستقلال بلدان العالم المتخلف.

وجدير بالإشارة هنا القول إن البرجوازية الأوروبية، لم تكن برجوازية قد انتصرت في مجال الاقتصاد فقط وخلقت تلك الثروة الكبيرة، وتلك الإنجازات الضخمة، وتلك الإبداعات والابتكارات ... وإنما انتصرت أيضا في مجال الفكر والثقافة عموما.

ومما سبق يمكن القول إن مسألة الاختلاف الجوهري والأساسي بين البرجوازية الأوروبية والبرجوازية الوطنية أو الكولونيالية كما يريد أن يسميها مهدي عامل في كتبه ودراساته<sup>26</sup>، فيبعدنا كل البعد عن محاولة البحث عن امكانية التماثل بينهما.. أي بين الشروط التاريخية التي سمحت بظهور البرجوازية الأوروبية، والشروط التاريخية التي سمحت بظهور البرجوازية الوطنية أو الكولونيالية. وبالنتيجة يمكن القول إن فشل ظهور البرجوازية في العالم العربي - الإسلامي يمكن أن يشكل سببا من الأسباب الأساسية والجوهرية في عدم تقدمه وتطوره، الأمر الذي جعله وهو يزرع في التأخر والتخلف.

### 9. دور النخب المثقفة:

عندما تعود إلى مجموعة من الأدبيات السوسيولوجية والفلسفية والسياسية... التي اهتمت بمفهوم النخبة (النخب) وعلاقتها بالمجتمع، فإننا نعثر على مجموعة من المعاني والدلالات المرتبطة بها من حيث تحديد المفهوم المرتبط بدوره بطبيعة المرجعيات الفكرية والنظرية. إن مفهوم النخبة يمكن أن نشير من خلاله إلى " النخبة العسكرية ونخبة الفرسان، ونخبة المجتمع، ونخبة مهنة من المهن، وهكذا. "<sup>27</sup>، ولذلك فإن مفهوم "النخبة، والنخبوية، ليحمل وفي كثير من الأحيان حمولة ذات دلالة سلبية، ذلك لأنه يشير إلى

تلك الأنساق والأنظمة الاجتماعية التي تقوم بتشجيع بعض الأفراد على حساب عدد كبير من الناس، وتحقق امتيازات أقلية من البشر، وتكسبها قيمة بشكل تعسفي...<sup>28</sup>

ويفهم من هذا التصور أن النخبة هي ضد الأكثرية، ضد الجماهير، ضد المجموعة الكبيرة ... الخ. الأمر الذي يجعلها تحتل مكانة أعلى مقابل احتلال الجماهير لمكانة أدنى.

ومن هذا المنظور السابق في فهم النخبة، فإن مفهوم النخبة قد استعمل أول مرة في القرن 17 وذلك " ... لوصف سلع ذات توافق معين وامتد استعمالها فيما بعد ليشمل الإشارة إلى فئات اجتماعية متفوقة كالوحدات العسكرية الخاصة أو الطبقات العليا من النبلاء.<sup>29</sup>

إن لوبلاي وفي هذا الصدد يعتبر أن " تقسيم المجتمع إلى طبقة عليا، والمتمثلة من القادة والمسيرين، وفي هذا الصدد وجب القول إن الفضاء الأوروبي قد عرف كثيرا من العلماء والمفكرين الذين اهتموا ودرسوا وبحثوا مسألة النخبة كأقلية، والجماهير كأكثرية داخل المجتمع الأوروبي وطبيعة العلاقة العضوية بينهما. أي الحاكم والمحكوم.

أن المثقف هو إنسان مأزوم أو يعيش أزمة فهو لم يصل بعد إلى أن يكون ذلك المثقف الذي " تشغله قضية الحقوق والحريات، أو تهمة سياسة الحقيقة، أو يلتزم الدفاع عن القيم الثقافية، المجتمعية أو الكونية، بفكره وسجلاته، أو بكتابات ومواقفه.<sup>30</sup> وبالمقارنة فإن النخبة المثقفة العربية - الإسلامية بقيت بعيدة كل البعد عما قامت به نظيرتها في العالم الأوروبي، ولم تستطع أو تتمكن بأن تقوم بما قامت به. وعليه، فإن "المثقف العربي الحديث، لم يؤت له أن يلعب الدور الذي لعبه المثقفون الغربيون منذ فولتير وروسو إلى سارتر وفوكو، أي لم يشارك في صناعة الرأي العام وصوغ الوعي الجماعي أو في التأثير في الديناميكية الاجتماعية والسيروية التاريخية.<sup>31</sup>

ومن أبرز ما يمكن أن يقوم به المثقف كنخبة في عملية تغيير المجتمع، هو أن " ... ينخرط في استراتيجية شاملة للتدخل العلمي من أجل فتح العقليات المنغلقة وتحريكها.<sup>32</sup>

### 10. الحداثة الفكرية والسياسية:

يرتبط مفهوم الحداثة بالانتصار وتجاوز كل ما هو قديم وبال وعتيق. ويتعلق الأمر هنا بتلك التحولات التاريخية والمنعرجات الحاسمة التي شهدتها أوروبا وعرفها الغرب. وبمعنى آخر يمكن القول إن الفضاء الأوروبي - الغربي انتقل من حالة تاريخية وثقافية وفكرية ... أصبحت عائقا في وجه تطوره وتقدمه، إلى حالة أخرى يمكن اعتبارها ضرورة وحتمية تاريخية تمثلت في تلك الصيرورة التي أدت لاحقا إلى تجاوز مجموعة المنظومة التقليدية، والتي لم تعد قابلة بطبيعتها التكيف مع كل ما هو جديد وحديث ومعاصر. وبهذا المعنى، فإن " الحداثة مفهوم دال على ما حققته المجتمعات الأوروبية منذ عصر النهضة إلى الآن من ثورات اقتصادية وتكنولوجية وعلمية واجتماعية وسياسية وثقافية عندما خطت خطواتها الأولى في طريق التحولات الرأسمالية بقيادة الطبقة البورجوازية، أو باتخاذها نموذجا والسير على منوالها ...<sup>33</sup>

والحداثة ليست ذات مضمون ومحتوى فكري وثقافي وفلسفي فحسب، بل هي أيضا حداثة سياسية "على شكل إنجازات دستورية ومؤسسية، كإعلان حقوق الإنسان والمواطن، ونظام فصل السلطات، وتشكيل أحزاب سياسية ونقابات للعمال ولأرباب العمل، وإفراز نظام الاقتراع الحر كوسيلة لاختيار الحكام، وممارسة سيادة الأمة ...<sup>34</sup>

ولما كان الأمر هكذا على مستوى الفضاء الأوروبي والثقافة الغربية، فإننا نقول إن الحداثة قامت في الغرب على تلك القطيعة الحاسمة بين مرحلتين تاريخيتين، وخطابين وعقليتين ...

فالحداثة الغربية قامت في سياقها التاريخي على مفهومي العقلانية والإنسانية. فالعقلانية هي التي جعلت من الإنسان أساسا ومصدرا للمعرفة، والإنسانية جعلت منه إنسانا يقرر وحده ما يشاء، ويحدد وحده ما يشاء، ويرسم وحده تاريخه ومصيره ... الخ.

لكن وفي المقابل.. كيف فهم الخطاب العربي-الإسلامي مفهوم الحداثة، وكيف تعامل معها لاحقا؟ وللإجابة على هذا التساؤل نقول: إن الحداثة في الفضاء العربي-الإسلامي قد اتسمت بعلامتين أساسيتين جعلتها مجرد "حداثة معطوبة" أو "حداثة مشوهة". هاتان العلامتان قد شكلا ما كان يطلق عليه في الأوساط الفكرية والثقافية العربية-الإسلامية ب: "صدمة الحداثة المزوجة". ذلك أن الحداثة لم تكن نابعة من الذات العربية-الإسلامية، ولم تكن نتيجة مخاض تاريخي طويل أدى إلى إفرازها وظهورها " فلقد ارتبط دخول الحداثة إلى الفضاء العربي-الإسلامي منذ البداية بصدمتين قويتين: صدمة الحداثة ذاتها بجدتها وغرابتها وغرائبيتها وأعاجيبها وقدرتها السحرية والساحرة ملفوفة في صدمة أخرى هي صدمة الاستعمار وزوال السيادة، مع ما ولدته هذه الصدمة من شعور بالدونية، والتأخر وكل المشاعر الإرتكاسية العاكسة للصدمة النرجسية القوية للثقافة المحلية.<sup>35</sup>

وهذا من شأنه وبطبيعة الحال يؤدي ضرورة وحتما إلى أن يتحول مشروع الحداثة في الفكر العربي-الإسلامي إلى مشروع فاشل وأفل. ومرد ذلك إلى أن "الخطاب الحداثي العربي شعر بأنه مقطوع عن مجموعة المرتكزات التي أسهمت في تطوير الحداثة الغربية، إذ لم تصاحبه حركة اكتشافات واختراعات تقلب الوعي القائم، ولم تحتضنه طبقة صاعدة مثل البرجوازية الأوروبية، ولم يجد الوقت الكافي لبناء نفسه بتوادة وسكينة ..."<sup>36</sup>

فالمماثلة هنا مستحيلة، بل غير طبيعية بين الحداثة الغربية وإمكانية وجود الحداثة في الفضاء العربي-الإسلامي.

ومعنى ذلك أن الحداثة في الفضاء العربي-الإسلامي مأزومة، وفي مأزق لا تحسد عليه، سواء تعلق الأمر بأعدائها الذين لا يرون التقدم والتطور إلا في الماضي أو تعلق الأمر بالحدثيين الدوغمائيين الذين يعتقدون أن الحداثة مجرد تقليد أعمى للحداثة الغربية.

وبالنتيجة نقول إن إشكالية الحداثة في الفضاء العربي-الإسلامي لا زالت رهينة سجلات ايدولوجية وسياسية بعيدة كل البعد عن التصور العلمي للمسألة والطرح المعرفي-الموضوعي الذي يخضع للنقاش الهادئ والرصين والنخبوي، والذي من شأنه أن يدفع بالمجتمع إلى الأمام منتصرا إلى ضرورة تقدمه وتطوره.

### خاتمة:

إن ما يمكن أن يقال أو يستنتج من هذا العمل أنه وجب الانتباه إلى أنني وقفت على الإشارة إلى محاولة ضبط وتحديد المفاهيم الواردة في كتاب شكيب أرسلان خاصة مفهومي "التأخر" و"التقدم"، وذلك في إطار أو من المنظور السوسيو-اقتصادي قصد معرفة وفهم المضمون المعرفي النظري والعلمي لهما. فلقد حاول شكيب أرسلان توظيفهما في عمله هذا ليوضح طبيعة الأسباب التي جعلت العرب-المسلمون يتأخرون اقتصاديا وسياسيا وعلميا وثقافيا وحضاريا في المجمل عن غيرهم (أوروبا-الغرب، أمريكا واليابان) من الأمم الأخرى التي تقدمت في كل تلك المجالات المشار إليها آنفا. وأما عن صاحب المقال فلقد تناول الموضوع مع الإبقاء على إشكاليته المطروحة في العنوان، ولكن بمنظور مختلف.. فهو ينظر الى الموضوع في عمقه وفي تحديد أسبابه الأصلية والجوهرية.

فالعامل هو مقارنة مختلفة عن المقاربة التي اعتمدها شكيب أرسلان. وذلك لأننا نعتقد أن الموضوع هنا هو قديم جديد، إذا وقفنا على إشكاليته التي لازالت راهنة من جهة ومرتبطة ارتباطاً عضوياً وإشكاليات العالم العربي-الإسلامي من جهة ثانية.

وتدخل هذه المقاربة في إطار الجراءة على الاجتهاد، ومحاولة فقه مثل هذه الإشكالية من منظور يتمرجح إلى التصور العلمي والمنهجي الذي يرتبط وما يمكن أن تقدمه العلوم الاجتماعية والإنسانية من القدرة على طرح الأسئلة العلمية بشكل صحيح وأصيل، ومحاولة تفكيكها وفهمها ومعالجتها ...

**الهوامش:**

- 1- محمود عبد المولى، 1982، 133
- 2- محمود عبد المولى، 75
- 3- طيب تيزيني. (ب-ت)، 74
- 4- شكيب أرسلان. (ب-ت)، 28
- 5- شكيب أرسلان، 29
- 6- عبد الهادي عبد الرحمن، 1988، 17
- 7- سورة التوبة، 111
- 8- شكيب أرسلان، 31
- 9- شكيب أرسلان، 78
- 10- شكيب أرسلان، 88
- 11- طيب تيزيني، 292
- 12- عبد الله العروي، 2002، 146
- 13- هاشم صالح، 2007، 36.
- 14- جنيفاف روديس لويس، 1977، 250
- 15- جماعة من الأساتذة السوفيات، 246
- 16- روني ديكارت، 1985، 161
- 17- جماعة من الأساتذة السوفيات، 246
- 18- اجتماع الخبراء، 1990، 22-23
- 19- هاشم صالح، 61
- 20- جماعة من الأساتذة السوفيات، 236-237
- 21- محمد عابد الجابري، 2005، 23
- 22- بول باران وإيف لاکوست، 1981، صص 45-46.
- 23- جورج طرابيشي، 1979، 09.
- 24- المرجع نفسه، 1979، 23
- 25- طيب تيزيني، 74
- 26- مهدي عامل، 1979، 158
- 29- ت-بوتومور، 1972، 05
- 30- علي حرب، 1998، 38
- 31- المرجع نفسه، 1998، 68.
- 32- محمد أركون، 1993، 18
- 33- عبد السلام حيمر، 2005، 84
- 34- المرجع نفسه، 2005، 85
- 35- محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، 2006، 05-06
- 36- محمد الحداد، 2005، 25

### بيبليوغرافيا:

\*القرآن الكريم، سورة التوبة، 111.

27 - GIOVANNI Busino, 1998, 03

28- GIOVANNI Busino, 1998, 04

## لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟: قراءة من منظور مختلف

- \* اجتماع الخبراء، 1990، تدريس الفلسفة والبحث الفلسفي في الوطن العربي، عرض: محمد مصطفى القباح، اشكالية الممارسة الفلسفية تدريسا وإنتاجا حالة الوطن العربي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان.
- \* باران بول لاکوست إيف، 1981، الاقتصاد السياسي للتخلف وأسباب التخلف الأساسية، دار الطليعة، الطبعة الثالثة، بيروت – لبنان.
- \* بوتومور - ت، 1972، النخبة والمجتمع، ت: جورج جحا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان.
- \* جماعة من الأساتذة السوفيات، بدون سنة، موجز تاريخ الفلسفة، ت: توفيق إبراهيم سلوم، دار الفارابي، الطبعة الثالثة، بيروت – لبنان.
- \* طرابيشي جورج، 1979، الاستراتيجية الطبقة للثورة، دار الطليعة، بيروت-لبنان.
- \* وديس لوبس جنيفاف، 1977، ديكرات والعقلانية، ت: عبده الحلو، دار منشورات عويدات، الطبعة الثانية، بيروت-لبنان.
- \* ديكرات روني، 1985، مقال عن المنهج، ت: محمود محمد الخضير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة، مصر.
- \* أرسلان شكيب، ب-ت، لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟، دار المعرفة، الجزائر.
- \* تيزيني طيب، ب-ت، حول مشكلات الثورة والثقافة في "العالم الثالث" الوطن العربي نموذجا، دار دمشق، سوريا.
- \* عبد الرحمن عبد الهادي، 1988، جذور القوة الإسلامية قراءة نقدية لتاريخ الدعوة الإسلامية، دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان.
- \* العروي عبد الله، 2002، ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، الطبعة السادسة، بيروت-لبنان، الدار البيضاء-المغرب.
- \* حرب علي، 1998، أوهام النخبة أو نقد المثقف، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، بيروت-لبنان، الدار البيضاء-المغرب.
- \* حيمر عبد السلام، 2005، المغرب: الإسلام والحداثة، منشورات الزمن، الدار البيضاء-المغرب.
- \* عبد المولى محمود، 1982، العالم الثالث ونمو التخلف، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس.
- \* عابد الجابري محمد، 2005، في نقد الحاجة الى الإصلاح، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان.
- \* عابد الجابري محمد، 2000، المثقفون في الحضارة العربية محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، بيروت-لبنان.
- \* عابد الجابري محمد، 1982، الخطاب العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت-لبنان.
- \* (مهدي عامل)، 1979، أزمة الحضارة العربية أم أزمة البورجوازيات العربية؟...، دار الفارابي، الطبعة الثانية، بيروت-لبنان.
- \* أركون محمد، 1993، الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، المؤسسة الوطنية للكتاب لافوميك، الجزائر.
- \* بنعبد العالي عبد السلام ومحمد سيلا، 2006، الحداثة وانتقاداتها، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، الدار البيضاء-المغرب.
- \* الحداد محمد، 2005، مواقف من أجل التنوير، دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان.
- \* ناصيف نصار، 1986، مطارحات للعقل الملتزم...، دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان.
- \* نصر حامد أبو زيد، 2005، الخطاب والتأويل، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، بيروت-لبنان، الدار البيضاء-المغرب.
- \* صالح هاشم، بدون سنة، الاستبداد التاريخي...، دار الساقى، رابطة العقلايين العرب، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان.
- \* كرم يوسف، ب-ت، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت-لبنان.
- \*BUSINO Giovanni, 1998, Elites et élitismes..., Casbah-Alger.